قصة بقلم الكاتب الجزائري احمد عكاشة

ترجمة حنفي بن عيسى

ليس للزنزانة التأديبية من نافذة ، بل لها ثقب صغير في حجم قطعة نقدية، مغطى من الخارج بصفيحة حديدية . لا استطيع ان ارى احدا من رفاقي المعتقلين ولكن استطيع ان اسمعهم . وشيئا فشيئا تعرفت عليهم من كثرة الاستماع الى اصواتهم ، انها اصوات خشنة رزينة ، صافية النبرة ، او عنيفة ، انها اصوات اولاد بلغوا النضج قبل الاوان في زقاق مدينة الجزائر التي مرت عليها قرون ، اصوات فيها محبة وسخرية وموسيقى منسجمة ترتفع فوق منحدرات الجنينة . (1)

انها اصوات فتية ، فاغلب هؤلاء المحكوم عليهم بالاعدام لا تزيد اعمارهم على العشرين او الثلاثين .

لقد تعودت ، كل مساء ، ان استمع بهذه الطريقة الى مرزق ، ومصطفى وعلاوة ، وحميد ، ومحمد ، وقاسم وجعفر وخاصة جعفر الذي تقع زنزانته تحت زنزانتي بالضبط، فقد كنت استطيع ان اتبادل معه بعض الكلمات، عندما ينهض كل منا كل مساء ، الى النافذة التي ينفذ منها بصيص من نور النهار .

وجعفر ، وقاسم ، طفلان من نفس الحي الذي كنت اسكن فيه ، انهما في سن العشرين تقلبا في الشقاء ، وكبرا في البطالة ، وتربيا في العذاب كجميع اطفال العالم ، في بلد يتحكم فيه الاستعمار . وذات ليلة ، قتلا مدير الشرطة في الحي ، وحكم عليهما بالاعدام فالتقيا هنا في السجن .

وذات يوم ، استطعت اخيرا ان اخرج للقيام بجولة قصيرة ، فسمعت رجرجة السلاسل في الساحة الجانبية المخصصة للمحكوم عليهم بالاعدام. واطل علي وجه من فوق الجدار الفاصل بيننا . كان قاسم وجعفر يبتسمان وقد اتكآا على جدار المغسلة .

ـ كم انت ضعيف ! كيف الاحوال ؟

ـ جيدة ، جيدة جدا.

ـ والاخبار ؟

ـ انها طيبة. كن شجاعا .

واشرق وجه جعفر ، المستدير ، ولمعت عيناه الساخرتان . كان يعرف جيدا انه من المستحيل ان تصلني اخبار جديدة بعد ثمانية ايام من الاعتقال . ولكن لا باس من كل هذا ، لان الامل والتفاؤل هما القاعدة هنا.

وحينما يمل احدنا الاعتقال ويقتصر في جوابه على عبارة « الحالة مليحة » فان المعتقلين يصيحون بحرارة .

ـ لا عليك . سننتصر

ـ ستحيا

ـ بسواعدنا سنحيا ، او سواعد غيرنا

وبطبيعة الحال ، الضمير في « تحيا » يشير الى الوطن . الجزائر . ثم اضاف بعد برهة قصيرة .

ـ الا تحتاج الى شيء ؟ هل عندك تبغ ؟

وفي الحين سقطت أمامي ، من فوق الجدار ، علبة زرقاء من السجائر التي توزع في السجون ، فالتقطتها ، واعدتها الى الجانب الثاني من الجدار .

ـ هل انتم مجانين ؟ لا احتاج شيئا .

واردت ان ابرهن لهما عن صحة ما اقول ، فرميت اليهما قطعة من الشوكولاته كان قد وضعها في جيبي بعض ممن عزلوا في الزنزانة ، عندما مررت ببطء امام نافذتهم . وسمع الحراس الضجيج فاسرعوا بالمجيء ، وكان علينا ان نفترق ولكن سنلتقي مرة ثانية، لان مناجاتنا اليومية ستحمل بعد التفقد ، رسالة الاخوة والامل الى كل زنزانة .

ومع ذلك ، فانا قلق في هذه الليلة بالذات فقد كنت منذ لحظات انادي ، بصوت خافت ، وانا متعلق بالنافذة .

ـ جعفر ! جعفر !

ـ أنا هنا

ـ كيف الحال ؟

ـ مليحة ، مليحة جدا . كن شجاعا

كان صوته واضحا صريحا ، كما عهدته دائما ، وسألني جعفر .

ـ هل عندك اخبار ؟.

ـ كل شيء على ما يرام. كن شجاعا

لم ارد ان اقول له بانني عرفت في غرفة الزائرين ان المتطرفين يزداد نشاطهم عنفا في الجزائر ، حتى ان بعض المتظاهرين العنصريين جاءوا الى السجن ليطالبوا بمزيد من الدماء ، فاجيب طلبهم ، واعدم اربعة من المعتقلين صباح يوم امس ، قبل الفجر .

وعبر السجن كله عن غضبته ، فاضرب عن الاكل مدة ٢٤ ساعة جميع المعتقلين وعددهم يربو على الالفين، وآزرنا السجناء العاديون .

ومر على السجن يوم حداد مؤثر ، فخيم السكون على ارجائه . وفي هذه الليلة بالذات ، لا داعي لان افكر في هذه المخاوف السوداء، لانه ليس من المعقول ان « يقوموا » بنفس العمل في يومين متتاليين ، ولا شك ان المقصلة تتمتع باجازة في

من ظلام السجن ، بعث الكاتب الجزائري احمد عكاش هذه القصة التي نشرتها مجلة النقد الجديد الفرنسية . ونحن ننقل هذه القصة الى اللغة العربية ليطلع ابناء العروبة على لون جديد من الادب الثوري الذي يعبر عن كفاح الشعب الجزائري في سبيل استقلاله . انه ادب يفيض بالالم والحزن ، ولكن ما فيه من القوة والتحدي، يعبر عن كل ما في الثورة الجزائرية من عنف ، وشجاعة ، وانسانية

(1) ـ احد احياء عاصمة الجزائر .

مكانها المشؤوم ، او انها ذهبت لتؤدي وظيفتها الدموية في قسنطينة او وهران ، ولكن في هذه الليلة ، هذه الليلة بالذات لا استطيع ان انام .

منذ ساعتين او ثلاث ، انقطعت المناجاة اليومية بيننا ، وخيم السكون حتى صار بالامكان سماع التنفس الثقيل وسعال المساجين المتقطع . وكانت المصابيح الكهربائية ، في الممرات والصالات المشتركة ، تضيء في سكون وحزن ، ولا يكاد يسمع سوى خطوات الحراس الرقيبة .

وفي القسم السفلي على بعد بضعة امتار ، كان التسعة والخمسون ممن حكم عليهم بالاعدام ينامون ، وهم على أتم اليقين انهم قدموا حياتهم ضحية . ولكن الم يتساءل كل واحد منهم عندما تراموا في المساء فوق فراش التبن : « في هذه الليلة يجيء دوري »؟

ونمت من غير ان اشعر . كان نوما عميقا مقطعا بالاحلام . لا شك ان الساعة الآن هي الثانية بعد منتصف الليل . وخيل لي ، وانا بين الحلم واليقظة انني اسمع صرخة عالية :

ـ انهم راجعون ، يا اخواني ، انهم راجعون .

ووثبت فوق فراش التبن، كانت الانوار منطفئة ، وكان السجن غارقا في الظلمة ، وسمعت وراء بابي همسة : « الزنزانة رقم ٧ . الزنزانة رقم ٧ » وفي الطابق السفلي كنت اسمع وقع خطوات . وصرير مفاتيح في اقفال ثقيلة . وبلغني صوت مبحوح ، صوت رجل يساق بالرغم عنه .

ـ وداعا يا اخواني ، كونوا رجالا ، ستعيش الجزائر .

عند ذلك استيقظ السجن كله ، وعبر عن غضبته واله .

ـ مجرمون ، مجرمون .

وارتفعت الضجة قوية لا تقهر ، انها تدوي كانها عاصفة منتقمة ، تتردد في اللانهاية تحت قباب المباني الضخمة . وكان جميع المعتقلين، وقد تعلقوا بقضبان الغرف المشتركة ، بدأوا يصرخون خلال النوافذ ،ويضربون ابواب الزنزانات ، وكانوا يرافقون بهتافاتهم واغانيهم ، خطوات اخوانهم الاخيرة .

ورجع النور مؤذنا بهدوء جديد ، وسرى بين المعتقلين خبر .

ـ لقد اخذوا خمسة ،بينهم مرزق ومحمد...

ولم يستطع احد ان يتبين خلال الظلام والضجيج من هم البقية . ولكن من المؤكد ان الخمسة موجودون الان في غرفة الموت ، يجابهون آخر الاستعدادات .

وبلغنا صوت من بعيد ، من بعيد جدا ، من وراء الجدار المحيط بالسجن ، صوت يصرخ بافتخار وتحد .

ـ تحيا الجزائر ، يحيا الاستقلال .

وصرخ احدهم قبل ان يموت « تسقط فرنسا . »

ولكن رفيقه في هدوء تام ، اوضح في الحين :

ـ يسقط الاستعمار الفرنسي . تحيا الجزائر .

انه نفس الهتاف الذي القاه ، ايقتون ، وفراج الذي كنا ندعوه « مراكش الصغير » وجميع رفاقهما الذين نفذ فيهم حكم الاعدام .

ان ساطور المقصلة قد انزلق الان في رضاته الفولاذية ، بدون شك . ومن المؤكد ان رأسا في العشرين من العمر قد تدحرج الان فوق نشارة الخشب . ولكن مجموعة المعتقلين رددت صرخة النصر :

ـ تحيا الجزائر ، تحيا الجزائر .

وحطم التأثر احد الطلاب فحيا هذه التضحية بنغمة حزينة رددتها بعض الصالات :

ـ الله اكبر ، الله اكبر .

وبعد أن عاد السكون من جديد ، بلغتنا من جناح النساء اخر اصداء اخواتنا المعتقلات كانها صلاة متألمة بعيدة .

ـ تحيا الجزائر ، تحيا الجزائر .

واستمر الاحتجاج الجماعي ينقل هديره الفائر الى اقصى الزوايا ، تتخلله بعض فترات السكون وخيل الي ان مباني السجن القائمة صارت رئة صدر كبير تتوافق فيه ضربات القلوب .

اما الان ، فقد انتهى كل شيء فالخمسة الذين ذهبوا ،لن يعيشوا الا في ذكرى الشعب المتأججة . وترامى المعتقلون واحدا بعد الاخر فوق فراشهم، وارتفع صوت من جديد .

ـ سننتقم لكم ايها الاخوان.

ستنقص خمسة اصوات فتية ، واضحة النبرة ، من جوقة الزنزانة الاخوية ، لن يعود هناك لا مرزق ، ولا محمد ، ولا .. انني افكر في الاحرار الاخرين الذين تدحرجت رؤوسهم منذ حين فوق النشارة . افكر في هؤلاءالمقاومين الشباب الذين لم يتح لهم حتى شرف الموت امام كتيبة تنفيذ حكم الاعدام ، افكر في رسالة صاحب الزنزانة رقم ٧ الاخيرة . ما اعظم شجاعته ! ترى من هو ؟ لا شك ان جعفرا يعرف ، وتعلقت بالقضبان الحديدية بشدة :

ـ جعفر !

ولم اتلق اي جواب ، لا شك انه لم يسمعني .

ـ جعفر ، جعفر .

واستمر السكون . عند ذلك ارسلت نداء اخيرا بجميع قواي . وكلي امل في ان اسمع مرة ثانية صوت هذا الشاب الدافيء ، المتعطش للعمل والحياة ، والمجد . واحسست من حولي عشرات الاذان تترقب الجواب . ولكن لا شيء . انه هدوء الموت البارد . عند ذلك فهمت كل شيء .لن يجيب جعفر بعد اليوم ، مثل مرزق ومحمد ، لقد كانت الزنزانة رقم ٧ زنزانته .

وسقطت فوق فراشي ،وانا منهك ، وعيناي محدقتان بالظلام الشاحب. كانت زنزانة جعفر خالية . انه صديقي ورفيقي، واخي ، وحلمت انني ارى ابتسامة الطفولة فوق جدار المغسلة . لا ازال احلم . ورأيت الاشقاء الكبار ، ابناء اليونان، والصين ، رأيت الدم السخي الذي يرافق الانسانية في سيرها . وفكرت في نفسي « ترى لو اقتضى الامر ان تقدم الضحايا من جديد ؟ » وارتفع النهار في خارج السجن .وزقزقت السناني في شيء من الوجل والاستغراب ، في الهدوء الشامل الذي خيم بعد العاصفة . اما انا فلا ازال اشم رائحة لذيذة . انها رائحة الياسمين الذي سيزهر غدا فوق قبر الضحايا .

احمد عكاش

مجموعات « الاداب »

لدى الادارة عدد محدود من مجموعات السنوات الخمس الاولى من الآداب تباع كما يلي:

	غير مجلدة	مجلدة
مجموعة السنة الاولى	٩٥ ل.ل	١٠٠ ل.ل
« « الثانية	٢٥ «	٣٠ «
« « الثالثة	٢٥ «	٣٠ «
« « الرابعة	٢٥ «	٣٠ «
« « الخامسة	٢٥ «	٣٠ «